مقوّمات البلاغة عند الزّمخشري. كتاب الكشّاف أنموذجا

The Elements of Rhetoric by Al-Zamakhshari – Al Kachaf as a Model

الدكتور: أحمد مليانـي[1]*

[1] جامعة حسيبة بن بوعلي . الشلف (الجزائر)، a.meliani@univ-chlef.dz

تاريخ الاستلام: 2021/05/06 تاريخ القبول: 2021/07/26 تاريخ النشر: 2021/08/31

ملخص:

في هذه الورقة البحثية نعرض لمقومات البلاغة عند الزمخشري، وتطبيقاتها في تفسيره الكشاف، والتي كانت امتدادا لأبحاث عبد القاهر الجرجاني، فقد طبقها تطبيقا علميا دقيقا، زيادة إلى ما أضافه من آراء إلى هذه الأبحاث البلاغية، من خلال علوم البلاغة الثلاثة.

كلمات مفتاحية: البلاغة، الزمخشري، الكشاف، علم المعاني، علم البيان، علم البديع.

Abstract:

In this research paper, we present the elements of rhetoric in al-Zamakhshari and its applications in the book of al kachaf, which was an extension of Abd al-Qaher al-Jarjani research, as he applied it in a precise scientific application, in addition to the opinions he added to this rhetorical research, through the three sciences of rhetoric.

Keywords: Rhetoric; al-Zamakhshari; al kachaf; Semantics; Statement.

* **المؤلف المرسل**

1. مقدمة:

أجمع البلاغيّون على أن الزّمخشري[1] من أعلام الدراسات البلاغية والقرآنية واللّغوية وهذه الصفة بارزة في كتابه (الكشّاف)، فقد تناولها المفسّرون على اعتباره مفسّرًا والبلاغيون على أنّه بلاغيٌ واللغويون بوصفه لغويًا، وهذا دليلُ اعترافهم بمقدرة الزّمخشري في الانتفاع بالبيان في خدمة القرآن وتبيان جماليته وتقريب مراد اللّه تعالى في كلامه، إمامًا لا يبارى في عهده، ولهُ آراءٌ كثيرة في مسائل علوم البلاغة، تشهد له بالتفوق فيها، رجع إليها علماء البلاغة المتأخرين، وفي تفسيره الكشّاف الكثير من المسائل البلاغية لتوضيح وتفصيل و تجلية أسرار الجمال وتنظير آيات قرآنية أخرى بنصوص من الشّعر البليغ.

2.علم المعاني ومباحثه

يظهر من تتبّعنا لكتاب الكشّاف أن الزمخشري يردّد مصطلح علم المعاني مقترنًا بعلم البيان، فهو يطلق على المباحث البلاغية علم البيان، فمثلا الاستئناف المعروف في باب الفصل والوصل من أبواب علم المعاني، يجري عنده تحت اسم علم البيان، فعند تفسيره للآية الكريمة:﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾[2] يقول: "فإن قلتَ: كيف مخرج هذا القول في علم البيان؟ قلتُ:مخرجه مخرج الاستئناف"[3] ،على الرّغم من أنّه يقرّ في موضع آخر على ضرورة المعرفة بعلمي المعاني والبيان لمن أراد تفسير القرآن الكريم، "وهذا الخلطُ بين علمي المعاني والبيان ليس الوحيد في مفهوم الزمخشري فقد أخلط بين علمي البيان والبديع وأطلق عليهما علم البيان بل نجده يطلق على علوم البلاغة الثلاثة علم البديع، بالرغم من تحديد الزمخشري للكثير من الألوان البيانية فإنه لم يذكر مرة واحدة اسم علم المعاني على مسألة بلاغية من المسائل التي تنطوي على كثرة ما عرض منها"[4].

ومن موضوعات علم المعاني التي تناولها في كتابه نذكر منها:

1.2 التقديم والتأخير:

للتّقديم والتّأخير أثر كبير في بلاغة الكلام، وهذا ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني (ت.471هـ) في قوله:" هو بابٌ كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرّف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قُدِّمَ فيه شيء، وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكان"[5] وتتّضح ههنا مزيّة التقديم والتأخير في الكلام، وتأثير ذلك في المتلقي والدفع به إلى استحسانه.

راح الزّمخشري يطبّق في تفسيره آراء عبد القاهر الجرجاني تطبيقًا مستّقطبًا، وقد وصل هذا التطبيق بكثير من آرائه التي تدلّ على تعمّقه في تصوير الدلالة البلاغية، وإحاطته بخواص العبارات، وما تشتمل عليه من مفردات وتراكيب، ومن المباحث التي ترتّبت عليها تطبيقات الزمخشري في التقديم والتأخير تقدّم الخبر على المبتدأ وما له من مزيّة في التأكيد من مضمونه والرّكون إليه، ويتّضح هذا الأمر في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ**﴾[6]، حين يقول: "فإن قلتَ: أي فرق بين قولك: وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم و بين النظم الذي جاء عليه؟ قلتُ: في تقديم الخبر على المبتدأ دليلٌ على فرط وثوقهم بحصانتها و منعها إيّاهم، وفي تصيّر ضميرهم اسما لأن وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزّة و منعة لا يبالي معها بأحد يتعرّض لهم أو يطمع في معازّهم وليس ذلك في قولك:وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم"[7]. وتتّضح من خلال هذه الآية الكريمة فنّية التقديم والتأخير، وتصويره للمعنى المراد من خلال سياق الحال و الحالة النّفسية التي شخّصها التعبير القرآني.

2.2 الفصل والوصل

مثّل الجاحظ (ت. 255 هـ) في كتابه البيان و التّبيين للفصل و الوصل بعديد الأمثلة ونذكر من ذلك ما رواه" أن رجلا مر بأبي بكر و معه ثوب فقال: أتبيع الثوب؟ فقال: لا عافاك الله فقال أبو بكر

رضي الله عنه، لقد علمتم لو كنتم تعلمون، قل:لا وعافاك الله"[8]. فالوصل هو عطف الجمل التي لا محل لها من الإعراب بعضها على بعض، والفصل ترك ذلك العطف .

وقد عرض الزّمخشري لِما جاء تحت باب الفصل والوصل، وأشار إلى أنهما من أسس البلاغة العربية، ففي تفسيره قوله تعالى:﴿ **الم** (1) **ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾[9] يقول:"والذي هو أرسخ عرقا في البلاغة أن يضرب عن هذا المحال صفحا وأن يقال أن قوله:(الم) جملة برأسها، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و(ذلك الكتاب) جملة ثانية، و(لا ريب فيه) جملة ثالثة، و(هدى للمتّقين) رابعة، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير نسق، وذلك لمجيئها متآخية آخذا بعضها بعنق بعض، فالثانية متّحدة بالأولى معتنقة لها، وهلم جرا إلى الثالثة و الرابعة" [10]. ومقصدُ الزّمخشري هنا بلاغة القرآن الكريم المتأتّيةُ في هاتين الآيتين عن طريق جمالية الوصل دون حرف واصل أو حرف عطف، "وقد مضى يصوّر تآخي العبارات، إذ كل منها تؤكد سابقتها ومن أجل ذلك انعقد نظامها دون وصل بحروف العطف، فكل عبارة تأخذ بعنق أختها" [11]، وهذا ما سعى الزّمخشري إليه في نظريّة النّظم من خلال تطبيقاته على التنزيل الحكيم في حسن تأليفه و روعة بلاغته.

3.2 التكرار

اهتم البلاغيون القدامى بظاهرة التكرار على اعتباره مزيّة في الكلام، وظاهرة فنيّة راسخة في الأساليب العربيّة، ونلفي اهتمام ابن رشيق القيرواني (ت. 463 هـ) بظاهرة التّكرار حسب سياقات وروده في الكلام، حيث يقول:"وللتكرار مواضعٌ يحسن فيها، ومواضعٌ يقبح فيها، فأكثر ما يقع في الألفاظ دون المعاني هو في المعاني دون الألفاظ أقلّ، فإذا تكرّر اللفظ والمعنى جميعًا فذلك خذلانٌ بعينه"[12] ،ومن خلال هذا يظهر تقسيم ابن رشيق التّكرار إلى ثلاثة أنواع، وهي تكرار في اللفظ دون المعنى، وتكرار في المعنى دون اللفظ، وتكرار في المعنى واللفظ معًا، وتراوحها بين الاستحسان والقبح.

وقف الزمخشري عند التّكرار كثيرا، حيث يقول في تقريره ما يكمن وراءه من معان نفسية عند تفسيره للآية الكريمة: ﴿**فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ** (39) **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾[13] حيث

يقول:"فإن قلت: ما فائدة تكرير قوله {**فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ**} {**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**} قلت: فائدته أن يجدّدوا عند استماع كل نبإ من أنباء الأولين ادّكارًا واتّعاظًا، وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظا، إذا سمعوا الحث على ذلك و البعث عليه وأن يقرع لهم العصا مرات، ويقعقع لهم الشن تارات، لئلا يغلبهم السهو ولا تستولي عليهم الغفلة، وهكذا حكم التّكرير ، كقوله تعالى: ﴿ **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ [14] عند كل نعمة عدّها في سورة الرحمن، وقوله: ﴿**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ**﴾[15] عند كل آية أوردها في سورة المرسلات وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبرة حاضرة للقلوب مصورة للأذهان، مذكورة غير منسية في كل أوان"[16].

فكل تكرير جاء في القرآن مطلوبٌ به تمكين المكرر في النفوس وتقريره، كما لا يغفل الجانب النفسي لأسلوب التّكرير، و غايته تمكين المعاني في النفوس وبسطها بالإيضاح و التفسير لتوقظ الغافل وتثير فكره.

4.2 الالتفات

يَعرض الزمخشري في كتابه الكشّاف لأسلوب الالتفات، فنجده يتحدّث عن دقة و جمال هذا الأسلوب، الذي يطري نشاط المتلّقي، ففي تفسيره للآية الكريمة: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾[17] يقول:" فإن قلت: لمَ عَدِلَ عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت: هذا يسمّى الالتفات في علم البيان، قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى المتكلم... وذلك على عادة افتنانهم في الكلام و التصرّف فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، و تختص مواقعه بفوائد"[18].

فالالتفات عند الزمخشري تكمن أهميته في التأثير على المتلقي تأثيرا نفسيًا، وتوجيه يقظته إلى الكلام، إذ هو نتاج تحوّل الأسلوب وعدم سير الكلام على منوال واحدٍ. وهذا ما يصطلح عليه ابن المعتز (ت296هـ) بالاعتراض" وهو الانصراف من طريقة من طرق التعبير الثلاث وهي متكلم والخطاب والغيبة إلى طريقة أخرى منها، أو التعبير عن معنى من المعاني بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير بطريق آخر منها"[19]، ومبعثٌ الالتفات هو تجديد الكلام بتجديد أفانين القول، والبعد عن الرتابة التي قد تركن

إليها اللغة، فتذهب عليها استمالة وعي المتلقي وإمتاعه وجذب انتباهه بذلك الانحراف عن النسق المألوف.

3. علم البيان ومباحثه

إن الدّارس لمباحث علم البيان في كشّاف الزمخشري يستطيع أن يدرك لأول وهلة أنّه يُخضع معالجته الجمالية للصور البيانية التي يرسمها القرآن الكريم إلى حد كبير لآراء المعتزلة، في تقسيمهم اللغة إلى حقيقة ومجاز، ويضيف الزمخشري فيجعل الكلام العربي مبنيا على التحقّق أو مبنيا على التّخييل، والمعتزلة يذهبون إلى أن التجوّز في اللغة أكثر وأعمّ، ويقول ابن جني (ت.392هـ): "واعلم أن أكثر اللّغة مع تأمله مجاز لا حقيقة" [20]. ومن باب التوسّع اللغوي أيضا، يرى المعتزلة ومنهم أن لغات العرب كلها حجّة، ولهذه الأصول أثر كبير في مبحث الزمخشري الجمالي حين يعرض لصور البيان القرآني.

ومن مباحث علم البيان التي عرض لها الزمخشري نذكر:

1.3المجاز

فسّر الزمخشري المجاز وبسّط معناه، لكنّه لم يبحث فيه من الناحية الجمالية، ونورد مثالا عن ذلك قوله تعالى: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**﴾[21] ، قال الزّمخشري :"فإن قلت: كيف أسند الخسران إلى التجارة وهو لأصاحبها؟ قلت: هو من الإسناد المجازي، وهو أن يسند الفعل إلى شيء يتلبّس بالذي هو في الحقيقة له"[22]، وكان عبد القاهر الجرجاني يفرّق بين المعنى الحقيقي وما يتجاوزه إلى المعنى الثانوي المستجد في المجاز فيقول: " وأما المجاز فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها، لملاحظة بين الثاني والأول فهي مجاز، وإن شئت قلت: كل كلمة جُزْتَ بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له، من غير أن تستأنف فيها وضعا، لملاحظةٍ بين ما تُجُوّز بها إليه، وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها، فهي مجاز" [23].

يرى الزّمخشري أن للمجاز المرسل علاقات متعدّدة منها الجزئية والسببيّة والكلية والمسببيّة، وكان مما أضافه من علاقات المجاز المرسل، اعتبار ما يؤول إليه الشيء، كما طبّق صور المجاز ألإسنادي أو العقلي

الذي اكتشفه الجرجاني تطبيقا دقيقا وأضاف إلى صوره ما رسم هذا المجاز في اللغة وصياغاتها رسما استقصاه من جميع أطرافه ممثّلا له بشواهد من القرآن الكريم.

2.3 الاستعارة

من البحوث البلاغية التي تكلّم عنها الزمخشري في علم البيان الاستعارة، و رأى أنها "إنّما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له و يجعل الكلام عنه صالحا لأن يراد به المنقول عنه و المنقول إليه لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام"[24] فالاستعارة عند الزمخشري إما أصلية أو تبعيّة وتكون في الصفات والأفعال. ولو أننا تتبعنا كتاب الكشّاف لوجدنا أن الزمخشري قد ذكر العديد من الشواهد التي توضّح مفهومه، ففي تفسيره قوله تعالى: ﴿ **وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ**﴾[25] إذ يقول:"التحريم استعارة للمنع، لأنّ من حرّم عليه الشيء فقد منعه"[26].

كما عرض الزمخشري علينا نماذج من الاستعارة المكنيّة في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ**﴾[27] حين قال:"النّقض: الفسخ و فكّ التّركيب، فإن قلت: من أين ساغ استعمال النّقض في إبطال العهد؟ قلت: من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة، لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين... وهذا من أسرار البلاغة و لطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار، ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روافده"[28]، فمن مميّزات الاستعارة القدرة على الجمع بين الأشياء المتباعدة، والتوحيد بينها، ليخرج الكلام في النهاية مركّبا جديدا ذو صفات خاصة ومتميّزة و مكثّفة.

3.3 التمثيل والتخييل

التّمثيل من المباحث البيانية التي التفت إليها الزّمخشري في كتابه الكشّاف واستخدم هذا الأسلوب في خدمة مبادئ الاعتزال، وألقى الضوء على الغاية الأساسية له ودوره في التعبير الأدبي عامة والقرآني خاصة. فالتّمثيل عنده"ما يكشف المعاني و يوضّحها لأنّه بمنزلة التصوير والتشكيل لها"[29] ، وهو كذلك الأمثال الموجودة في القرآن الكريم التي تروي قصص الأنبياء و الأمم السالفة، وكذلك الأمثال الواقعيّة التي تقوم على التّشبيه والاستعارة وغيرها من ضروب المجاز.

شرح الزّمخشري أسلوب التّمثيل في الآية الكريمة: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا**﴾[30] فيقول:"من باب التّمثيل ومعنى ذلك أنّه نصّب لهم الأدلة على ربوبيته و وحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميّزة بين الضلالة والهدى، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقرّرهم وقال لهم: ألستُ بربّكم؟ وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا، شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك، وباب التّمثيل واسع في كلام الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، وفي كلام العرب" [31].

إذًا، فالتّمثيل تشبيه حال بحال أو حدث بحدث آخر، الغرض منه إفادة معنى يتجسّد في ذهن السامع عندما ينزل المثال منزلة الواقع والحقيقة. وقد فرّق عبد القاهر الجرجاني بين التّشبيه والتّمثيل و رأى أن هذا الأخير "هو الشّبه الذي يحصل بضرب من التأوّل كقولك: هذه حجّة كالشمس في الظهور"[32].

أما التّخييل فيقصد به الزّمخشري تجسيد حال من الأحوال والانتقال به من فضائه المعنوي إلى فضائه المجسّد، وهو نوع من التمويه يحدث في ذهن السامع، فمثلا في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾[33] ،و يظهر التّخييل في هذه الآية الكريمة في مبايعة المسلمين للرسول صلى الله عليه وسلم، فكأنهم بايعوا الله يدا بيد، و هذا ما يخيّل للقارئ في التلقي الأول للنص.

4.3 الكناية والتعريض

يُعدُّ الزمخشري أوّل من أثار موضوع ضرورة إمكان المعنى الحقيقي في طريق الكناية و أوّل من ذكر المجاز عن الكناية، و أوّل من فرّق الكناية عن التعريض تفريقا علميًا دقيقا [34]، حيث يقول مفرّقا بينهما:" الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، كقولك طويل النّجاد والحمائل لطويل القامة، وكثير الرّماد للمضياف، والتعريض أن تذكر شيئًا تدل به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلّم عليك و لأنظر وجهك الكريم ولذلك قالوا:

وحَسْبُكَ بالتَسْليمِ منّي تقَاضِيَا

وكأنّه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض، ويسمى التلويح لأنّه يَلُوحُ منه ما يريده" [35]. ولعلّ الزّمخشري قد اعتمد في تفريقه بين الكناية والتعريض على تعريف عبد القاهر الجرجاني للكناية على أنّها نوع

من الإيماءِ المتعلّق بالمعنى الحقيقي بمعنى آخر يشاكلهُ، ويوردُ أمثلةٍ في الكناية عن صفة مثل "طويل النجاد" و "كثير الرّماد" و "نؤوم الضحى" [36] .

قسّم الزمخشري الكناية إلى كناية عن صفة وكناية عن موصوف، و كناية عن نسبة، وهنا نرى أنّه خالف عبد القاهر الجرجاني فيما ذهب إليه من اعتبار كناية النسبة من باب المجاز الحكمي أو العقلي، حيث"ردّها إلى بابها، وتقسيمه هذا للكناية أخذه البلاغيون وعدّوه هو الأساس، كما استنبط نوعا غريبا من الكناية، وهو أن تعمد إلى جملة معناها على خلاف الظاهر، فتأخذ الخلاصة من غير اعتبار مفرداتها بالحقيقة والمجاز فيعبّر بها عن المقصود"[37]، واستشهد لذلك بالآية الكريمة: ﴿**الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾[38]، قال:"جعلوه كناية عن الملك، فقالوا استوى فلان على العرش يريدون مَلُكَ و إن لم يقعد على السرير البتة"[39]، أي أن الاستواء على السرير إلا مع المِلكِ، فجعلوه كناية عنه.

واضحٌ أن الزّمخشري أضاف في نظرية البيان إضافات كثيرة، فقد استكمل صور الكناية والاستعارة والمجاز المرسل و العقلي، و أحكم قواعدها إحكاما دقيقا، بحيث يمكن أن يقال أن قواعد علم البيان قد كملت عنده كما كملت قواعد علم المعاني، وكل ما هناك أنّه بقي من يستقصرها ويتتبعها عنده وعند عبد القاهر الجرجاني، وينظمها في مصنف يجمع متفرّقها ويضم منثورها.

4. علم البديع ومباحثه

الدّارس لبحوث الزمخشري البلاغية والمدقّق فيها يدرك أنّه صبّ جل اهتمامه أثناء تفسيره لكتاب الله في قالبي علمي المعاني والبيان، فهو متأثر بعبد القاهر الجرجاني الذي يرى مزيّة الكلام الجمالية في معناه، وأمّا اللفظ فهو خادم المعنى [40]، ومما لا شك فيه أن اهتمام الزمخشري بهذين العنصرين جعله يتخفّف كثيرا من سرد وتحليل ما يتصل بعلم البديع، و لهذا فلم نجد في مباحثه البلاغية إلا القليل، "وليس الزمخشري بهذا منكرا للصنعة البديعيّة، فيها يحسّن الكلام و لكنها قشر بجانب اللّب، وما اللّب في رأيه إلا الظلال المعنوية والنفسية التي يوحي بها نظم الكلام"[41]، وفي هذا يخالف عبد القاهر الجرجاني، الذي لم يعط البديع بالا، واعتبره خارج مباحث البلاغة بخاصة في القرآن الكريم" إذ كان يرى كما رأى المتكلمون

من قبله، أنّه لا يدخل في قضية الإعجاز القرآني، لأن كثيرا من ألوانه مستحدث، وما جاء منه في القرآن إنما جاء دون تأتٍ له وتكلّف"[42].

ومن المباحث التي تحدّث عنها الزّمخشري في علم البديع، نذكر منها:

1.4 الجناس

عرّف ابن معتز الجناس "أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام، و مجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها"[43]، ويرى الزمخشري أن من محاسن الكلام الذي يتعلّق باللفظ هو الجناس، بشرط أن يأتي مطبوعا أو يصنعه عالمٌ بجوهر الكلام، يحفظ معه صحة المعنى و سداده، ففي تفسيره للآية الكريمة: ﴿**وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ**﴾[44]، يقول الزّمخشري:"ولقد جاء هنا زائدا –يقصد الكلام– على الصحة فحسُنَ و بَدُعَ لفظًا ومعنى، ألا الزيادة التي يطابقها وصف الحال"[45]، كما أنّه يبيّن الجمال المعنوي الذي يؤديه الجناس في الآية الكريمة: ﴿**وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[46]، يقول: "... و لما ذكرنا من المعاني والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية ورقّصوا لها رؤوسهم، لا لتجانس الكلمتين، وهما قوله: "ابلعي" و "أقلعي" وذلك وإن كان لا يخلو الكلام من حسن، فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللّب وما عداها قشور"[47]، وما يريده الزّمخشري هنا، أنّ جمالية الجناس لا تتحقق في اللفظتين المتجانستين بقدر ما تكون في جمالية المعنى المتحقّق من خلالهما.

2.4 الطباق

هو من الفنون البديعيّة التي وقف عندها الزّمخشري، و يرى أنّه من محاسن الكلام، ويشير إليه في الآية الكريمة: ﴿**وإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ** ﴾[48]، إذ قال:"إنّه قد ذكر السّفه وهو جهلٌ، فكان ذِكرُ العِلمِ معه أحسن طباقا لهُ"[49]. ولم يكن الزمخشري يفرّق بين الطباق واللّف، ودليلنا على ذلك ما جاء في تفسيره لقوله

تعالى:﴿ **مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ** ﴾[50] ، حيث قال ما نصّه: "شبّه فريق الكافرين بالأعمى والأصمّ ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع وهو من اللّف والطّباق" [51].

3.4 اللّف

من الأساليب البلاغية التي وقف عندها الزّمخشري وهو "أن يتضمّن الكلام معنيين معنى مصرّح به، ومعنى كالمشار إليه"[52]، وقد أشار إليه الزّمخشري عند تفسيره للآية الكريمة:﴿**وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ**﴾[53]، يقول:"المعنى وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى لن يدخل الجنّة إلا من كان نصارى، فلفّ بين القولين ثقة بأن السامع يردّ إلى كل فريق قوله وأمنا من الإلباس لما عُلِمَ من التّعادي بين الفريقين"[54]، وهذا إيجازٌ مشتملٌ على المعنى، وكأنّه يلفّه في سياق واحدٍ على اختبار مقدرة السّامع في الاستنتاج، ومن ثمّة نشره حسب ما استقرأ من معنى.

5. خاتمة:

فتح الزّمخشري من خلال كتابه الكشّاف عمق دراسة جديدة في البلاغة القرآنية، انتظمت على ما اكتشفه عبد القاهر الجرجاني، وما أضافه هو من نكت بلاغية ومعاني إعجازية ودلالات جمالية في نظم المعاني، وما بحث فيه من التركيب اللغوي وتعلّق العبارات بعضها ببعض من وجهة بلاغية، تعتمد على العناية بالكناية والاستعارة والمجاز والتّشبيه والتّمثيل، وكذا التّقديم والتأخير فهو يفصّل القول في الفروق المميّزة بينهما، كما أنّه كثير التنقّل بالألفاظ القرآنية من الحقيقة إلى المجاز خاصة إذا كان المعنى الحقيقي يختلف عن نظريات المذهب الاعتزالي، وصميم أفكاره.

كما أنّه بحث عن المعنى الذي قرّره عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز، وانماز عليه بأن الجرجاني وجّه عنايته بنظرية النّظم إلى المعاني، ولم يعر أهميّة لبديع القرآن، بينما اهتم الزمخشري بذلك وجعله أساسا يندرج تحت مفهوم البيان، باعتبار البديع أشكالا وصورًا يتفنّن بها القرآن الكريم ويبرّزها على نحو فنيّ يتميّز بها أسلوبه.

6. الهوامش:

1- الإمام أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزّمخشري، لقّب بالخوارزمي لأنه ولد في إقليم خوارزم، وقد جاور مكة زمنا فلقّب نفسه بجار الله، فصار هذا اللّقب علمًا عليه، ولد بزمخشر في السابع و العشرين من رجب سنة (467 هـ ، 1074 م) تلقى العلم على يد أبيه و حفظ القرآن عنه، ثم رحل إلى بخارى ليطلب العلم في مطلع حياته. توفي ليلة عرفة من سنة (538 هـ ، 1144 م). ينظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط:01، 1993، ج:05،ص:489.

2- سورة يس، الآية: 26.

3- الزّمخشري، الكشاف . عن حقائق غوامض التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، رتّبه و ضبطه وصحّحه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت ،لبنان،1996، ج: 04، ص: 11.

4- أحمد جمال العمري، المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1990، ص:174

5- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد رضوان الداية و فايز الداية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط:01، 2008،ص: 106.

6- سورة الحشر، الآية: 02.

7- الزمخشري، الكشاف، ج: 04، ص: 487.

8- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط:01، 1998،ج: 01، ص:261.

9- سورة البقرة، الآية: 01-02.

10- الزمخشري، الكشّاف، ج:04، ص: 428.

11- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط:07، 1995، ص:224.

12- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشّعر و نقده، تحقيق:عبد الحميد الهنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان،2007م، ج:02،ص:92.

13- سورة القمر، الآية: 39-40.

14- سورة الرحمن، الآية: 13 و غيرها.

15- سورة المرسلات، الآية: 15 و غيرها.

16- الزمخشري، الكشاف،ج:04،ص: 428.
17- سورة الفاتحة، الآية: 05.
18- الزمخشري، الكشاف،ج:01،ص: 517.
19- ابن معتز، كتاب البديع، تحقيق: عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط:01، 2012،ص: 73.
20- ابن جني، الخصائص،تحقيق: محمد علي النجار،دار الكتب المصرية، مصر، ج:01،ص: 447.
21- سورة البقرة، الآية: 16.
22- الزمخشري، الكشاف، ج:02،ص:22، ج:04، ص: 436.
23- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، قرأه وعلّق عليه: محمود شاكر، دار المدني، جدة، السعودية، ص:351-352.
24- أحمد جمال العمري، المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، ص:161
25- سورة البقرة، الآية: 16.
26- الزمخشري، الكشّاف، ج:03،ص: 343.
27- سورة البقرة، الآية: 27.
28- الزمخشري، الكشاف، ج:01، ص: 124.
29- المصدر نفسه، ج:01،ص:189.
30- سورة الأعراف، الآية: 172.
31- الزمخشري، الكشاف، ج:01، ص:111.
32- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة،ص: 92.
33- سورة الفتح، الآية: 10.
34- محمد أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري و أثرها في الدراسات البلاغية، دار الفكر العربي، القاهرة،مصر ص:417.
35- الزمخشري، الكشاف، ج:02، ص: 169-170.
36- ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز،ص:66.
37- أحمد جمال العمري، المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، ص: 170.
38- سورة طه، الآية: 05.
39- الزمخشري، الكشاف، ج:02، ص: 231-280.
40- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 49-54.
41- مصطفى الصاوي الجويني، منهج الزمخشري في تفسير القرآن و بيان إعجازه، دار المعارف، القاهرة، مصر،ط: 03، ص:259.
42- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:265.
43- ابن معتز، كتاب البديع، ص: 36.
44- سورة النمل، الآية: 22.

45- الزمخشري، الكشاف،ج:03،ص: 349.
46- سورة هود، الآية: 44.
47- الزمخشري، الكشاف،ج:02،ص: 383.
48- سورة البقرة، الآية: 13.
49- الزمخشري، الكشاف،ج:01،ص: 82.
50- سورة هود، الآية: 24.
51- الزمخشري، الكشاف،ج:02،ص: 207.
52- أبو هلال العسكري، الصناعتين . الكتابة والشعر،تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، دمشق، سوريا، ط:01،ص:423.
53- سورة البقرة، الآية: 111.
54- الزمخشري، الكشاف،ج:01،ص: 88.

5. قائمة المراجع:

1. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط:01، 1993، ج:05.
2. الزّمخشري، الكشاف . عن حقائق غوامض التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، رتّبه و ضبطه وصحّحه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت ،لبنان،1996، ج: 04.
3. أحمد جمال العمري، المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1990.
4. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد رضوان الداية و فايز الداية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط:01، 2008.
5. الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط:01، 1998،ج: 01.
6. شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط:07، 1995.
7. ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشّعر و نقده، تحقيق:عبد الحميد الهنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان،2007.
8. ابن معتز، كتاب البديع، تحقيق: عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط:01، 2012.
9. ابن جني، الخصائص،تحقيق: محمد علي النجار،دار الكتب المصرية، مصر، ج:01.
10. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، قرأه وعلّق عليه: محمود شاكر، دار المدني، جدة، السعودية.
11. محمد أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري و أثرها في الدراسات البلاغية، دار الفكر العربي، القاهرة،مصر.
12. مصطفى الصاوي الجويني، منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، دار المعارف، القاهرة، مصر،ط: 03.
13. أبو هلال العسكري، الصناعتين . الكتابة والشعر،تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، دمشق، سوريا، ط:01